النشاط التجاري الروسي في بلاد الشام حتى عام ١٩١٢

أ. م. د. بيداء علاوي شمخي جبر

جامعة بغداد / كلية التربية (ابن رشد) للعلوم الانسانية / قسم التاريخ

١٤٣٩هـ ٢٠١٧م

الملخص

اكدت الدراسة إن تركيز روسيا من الناحية الاقتصادية في البداية كان على العلاقات التجارية بالذات، وهي علاقات تعود الى العصور الوسيط وتوسعت في العصور الحديثة . وبينت الدراسة بوضوح جذور النشاط التجاري الروسي وبداية ظهوره في بلاد الشام . ولمحة عن تاريخ العلاقات الروسية – العثمانية ، ومصالح روسيا الاقتصادية في بلاد الشام. وفي ثنايا الدراسة وقفنا على ابرز المحطات، ولاسيما معاهدة (كوتشك كينارجي) ، بكونها نقطة تحول مهمة في علاقات الدولتين وفي النفوذ الروسي في الشرق ، وبمقتضاها حصلت روسيا على امتيازات تجارية في اراضي الدولة العثمانية ومن ضمنها بلاد الشام.

سلط البحث الضوء على النشاط التجاري الروسي في بلاد الشام، إذ بين أهمية التجارة الروسية في اسواق بلاد الشام ونموها بكونها جزءاً من نمو العلاقات التجارية الروسية – العثمانية.

وعلى وفق ماتقدم ، يبدو أن روسيا أصبح لها مركز تجاري رئيس وفعال في اسواق بلاد الشام ، فضلاً عن نجاحها في تأسيس قواعد وجودها والحصول على مكانة لها في اسواق بلاد الشام أسوةً ببقية الدول الاوروبية في المجال التجاري .

المقدمة

كانت بلاد الشام على مر العصور مركزاً تجارياً مهماً ذا ثقل سياسي واقتصادي لتوسطها العالم، واتصالها السهل بالقارات الثلاث ، ولوقوعها على طرق التبادل التجاري الكبرى ، وبكونها تطل على البحر المتوسط . ولانها تضم الطرق العالمية الكبرى المنطلقة من هذا البحر الى أقاصي شرق آسيا ، وبالعكس ، لاسيما الطريقين العالميين المسميين (طريق الحرير) و(طريق التوابل) ، وتحتضن في جزئها الجنوبي الاماكن المقدسة ، سواء الإسلامية أو المسيحية أو اليهودية ، فإنها جذبت إليها أنظار العالم الأوروبي ، فأنطلق التجار يبحثون في مدنها وموانئها ، ومخازنها المليئة بمختلف المنتوجات الصناعية والغذائية المحلية، والمستوردة من أقاصي شرق آسيا ، عن المكاسب الاقتصادية ، التي سيحصلون عليها اذا ما حملوا تلك السلع والبضائع الى اوروبا ، حيث يوزعونها على انحاء القارة، فضلاً عن تدفق الحجاج المسيحيون الى جنوبها حيث الاماكن المقدسة.

ومع ذلك تركز اهتمام الغرب بالشرق الادنى بصفة عامة، وببلاد الشام بصفة خاصة، لا بوصفها محطّ الأماكن المقدسة المسيحية كما نادى يوماً ما الصليبيون الغزاة ، وإنما لإنها منطقة ذات قيمة إقتصادية تجارية لأوروبا المتفتحة على النهضة الحديثة . أو بمعنى آخر ان الاسباب الاقتصادية التي دفعت الصليبيين في الماضي للإغارة على ارض بلاد الشام، واحتلال اقسام منها ، التي سوّغت بستار ديني ظاهري بحت ، ظهرت عارية في القرن السادس عشر الميلادي ، حيث لم يعد بعد النهضة الفكرية والاقتصادية التي عاشتها اوروبا في هذه المرحلة للدين من سوق نافقة فيها ، كما كان عليه الامر آبان الحروب الصليبية . ومن تلك المنطلقات استغلت روسيا ادعاءاتها بحق الاشراف على الكنائس في بلاد الشام وحماية الأرثوذكس من سكان الامبراطورية العثمانية ففتح القنصليات وشيدت المدارس والفنادق وشجعت النشاطين التجاري والثقافي مع ولايات بلاد الشام ، وعقدت اتفاقيات ومعاهدات بدت في ظاهرها ذات طابع تجاري ، إلا أنها حملت في طياتها تغلغلاً خفياً في تلك البقاع ، واستثماراً اقتصادياً لها، وتدخلاً في شؤونها وتمهيداً للاستقرار النهائي

فيها . ولعل ذلك ما دعى البحث في موضوع ذي صلة بالاستعمار الاقتصادي المتمثل بالنشاط التجاري لروسيا، ولاسيما في بلاد الشام، كما ان لروسيا علاقات تجارية واسعة مع بلاد الشام ، لذلك جاء البحث بعنوان (النشاط التجاري الروسي في بلاد الشام حتى مطلع القرن العشرين) .

اولاً: بدايات الاهتمام التجاري الروسي في بلاد الشام

ترد الاشارات الاولى الى علاقة روسيا[١] التجارية بالبلاد العربية الى ماقبل القرن التاسع الميلادي ، ومما يؤكد وجود علاقات تجارية بين روسيا والبلاد العربية في العصر العباسي ما اورده المؤرخ والجغرافي ابن خرداذبة (٨٢٠-٩١٢م) الذي قال : " **ان التجار الروس كانوا قد وصلوا الى بغداد وهم يحملون معهم سلعهم التجارية ومن جملتها جلود الخنزير وجلود الثعالب السود والسيوف ، ويبدو انهم كانوا يحققون ارباحاً جيدة ويبيعون سلعهم بأثمان مرتفعة ، وبذلك يحصلون على ارباح عالية ، علماً انهم يدفعون جزية العشر اكثر من مرة لانهم يمرون بأراضي اكثر من دولة واحدة** "[٢].

ومما يؤيد وجود العلاقات التجارية بين روسيا والبلاد العربية عامة ، ومنطقة بلاد الشام بشكل خاص ، العثور على النقود والمسكوكات العربية وبعض قطع من الذهب في روسيا والتي يعود تاريخها الى القرنين الثامن والتاسع الميلاديين[٣]. ومنذ القرن العاشر الميلادي ، توطدت العلاقات الروسية البيزنطية عندما تحول الامراء الروس[٤] في كييف (Kiev) الى المذهب الأرثوذكسي وتبعوا القسطنطينية[٥] كنسياً . وبعد سقوط القسطنطينية عام ١٤٥٣ بيد العثمانيين، اصبحت كنيسة موسكو التي ورثت مظاهر الطقوس البيزنطية مستقلة من الناحية العملية . وقد افسح ذلك المجال امام القياصرة الروس الى ادعاء انتقال حماية المسيحية الأرثوذكسية اليهم ، واخذوا يحلمون باليوم الذي يدخلون فيه القسطنطينية ويطردون المسلمين منها ويعيدون نصب الصليب مجدداً[٦].

وبغض النظر عن الاهمية الدينية للقسطنطينية ، فقد كان موقعها الاستراتيجي واشرافها على الممرات (البوسفور والدردنيل) وكونها تشكل حاجزاً امام روسيا للوصول الى البحر المتوسط او عبر هذا البحر الى المياه الأوروبية حين يتجمد بحر البلطيق، يفقد روسيا

طابعها كدولة اوروبية . ولهذا سعت روسيا بإستمرار للاندفاع جنوباً بإتجاه البحر الأسود ، ومنه عبر الممرات الى البحر المتوسط او على الاقل ضمان حرية المرور في الممرات في كل الاوقات لسفنها التجارية والحربية امام سفن اعدائها[٧].

بدأت العلاقات التجارية الروسية العثمانية منذ آواخر القرن الخامس عشر الميلادي عندما بعث القيصر الروسي ايفان الثالث[٨] (Ivan III) اول سفير روسي (م. ابلشيف M.Aplechiev) الى الاستانة عام ١٤٩٦– ١٤٩٧. وقد حمل السفير هدايا ورسالة من القيصر الى السلطان العثماني[٩] بايزيد الثاني[١٠]. ومما جاء فيها رغبة القيصر في اقامة علاقات صداقة ودية وحسن جوار وعلاقات تجارية مع الدولة العثمانية، وان يتم التنسيق الدبلوماسي بين البلدين وبشكل دائم[١١].

وفي عام ١٥٠٠م وصلت سفارة روسية اخرى برئاسة السفير اليكساندر كولوخفاستوف (Alexsander Colohkfastov) وقد ضمت سفارته مجموعة من التجار الذين حملوا معهم البضائع الروسية مثل السروج والفرو[١٢] واقتصرت مهمة هذه السفارة على عقد بعض الاتفاقيات التجارية بين البلدين، وعزز تلك الاتفاقيات السفير بوريس كولوخفاستوف (Bores Colohkfastov) عام ١٥١٥م[١٣].

وعلى الرغم من المساعي الروسية تلك إلا أن السلطات القيصرية لم تستطع إخفاء مطامعها التوسعية على حساب جارتها العثمانية . ويتضح ذلك من خلال اعتلاء ايفان الرابع[١٤] (Ivan IIII) الحكم أميراً لموسكو عام ١٥٣٣، اذ بدأ بتوظيف التجار ورجال الدين وحجاج بيت المقدس من المسيحيين الأرثوذكس في كتابة التقارير السرية عن الاوضاع العامة في الدولة العثمانية امثال القس كيناوي (Kenawi)، والرحالة بوزينا كوف(Bozeniakov) الذي زار القدس عام ١٥٥٩، وقد دامت زيارته لها ثلاثة اشهر جمع خلالها المعلومات الوافية عن القدس من التحصينات والتركيبة السكانية والاطياف وموارد الحياة واهم القوى المتنفذة فيها[١٥].

استمرت روسيا بعد ذلك في التوسع على حساب الممتلكات العثمانية في القوقاز والبحر المتوسط[١٦]، اذ لم يكن بوسع العثمانيين الوقوف بوجه روسيا بسبب مشاكلهم الخارجية مع الأخذ بعين الحسبان جدية الخطر الروسي خاصة وان روسيا كانت تعد قوة من الدرجة الثانية في اوروبا الشرقية[١٧]. وبما ان النشاط التجاري كان احد اهم بواعث التوجه الروسي نحو بلاد الشام في العصر الحديث، فبعد انتهاء القرن السادس عشر[١٨]، بدأت مرحلة جديدة برزت فيها اهتمامات الرحالة الروس بالتجارة والنشاط الاقتصادي لكل الاقاليم والمدن التي يمرون بها في سفرهم الى الديار المقدسة (فلسطين) ، واهتمامهم بجمع المعلومات التي تتعلق بالزراعة والتجارة وحرف السكان والتركيبة السكانية في مدن بلاد الشام[١٩].

ففي عام ١٦٣٤ ارسلت روسيا الراهب كاكار (Kakar) برحلة للاماكن المقدسة في فلسطين ، وادعى الراهب ان الهدف من رحلته هذه هو الوصول الى القدس لاداء الصلاة وطلب الرحمة والمغفرة، إلا أنه كان في الحقيقة تاجراً، واستمرت رحلته تلك ثلاث سنوات واستطاع خلالها جمع معلومات قيمة تتعلق بالوضع الاقتصادي من تجارة وزراعة وحرف السكان لكل الاقاليم التي مر بها في طريق رحلته الى فلسطين، علماً إنه بدأ رحلته من القوقاز ثم آسيا الصغرى وبلاد الشام وزار مصر والقاهرة وسيناء حتى مدينة القدس، وبقي في القدس ثلاثة ايام فقط، التقى بالرهبان الروس في مدينة القدس وبيت لحم . اما طريق عودته الى روسيا، فكان عن طريق السامرة ودمشق وأدرنة وديار بكر وأنقرة حتى وصل ملدافيا وكييف وموسكو. علماً بأن هذا الطريق لم يسبق للحجاج او الرحالة الروس المرور به من قبل، لذا فإن من المؤكد ان الحكومة الروسية هي التي أمرته بإتخاذ هذا الطريق الجديد للاطلاع على الاوضاع التجارية والاقتصادية للمدن والاقاليم العثمانية. ومن الجدير بالذكر ان الاختباء خلف الصفة الدينية او الدبلوماسية كان أمراً شائعاً بين معظم التجار القادمين الى بلاد الشام من روسيا واقاليم اخرى مجاورة لها، لما توفره تلك الصفة من حرية الحركة ببضائعهم وحمايتهم من الضرائب الكمركية[٢٠].

اثمرت تلك التقارير والمدونات بأن منحت قيصر الروس بطرس الاكبر[٢١] (Peter the Great) فكرة الوصول الى المياه الدافئة[٢٢]، أي الوصول الى مياه البحر الاسود ومنه الى البحر المتوسط وبصورة خاصة في الحدود الجنوبية لروسيا ، فتأثرت الدراسات والمعلومات التي قام بها السياح والتجار الروس والرهبان عن بلدان الشرق الاوسط بهذه الاهداف السياسية التي عمل بموجبها بطرس الاكبر فزاد اهتمامهم بالتعرف على الاوضاع العامة للاقاليم العثمانية[٢٣].

ثانياً: النشاط التجاري الروسي في بلاد الشام خلال عهدي القيصر بطرس الأكبر والإمبراطورة كاترين الثانية

منذ عهد بطرس الاكبر وحتى نهاية القرن الثامن عشر يمكن تقسيم السياسة الروسية تجاه الدولة العثمانية الى مرحلتين وعهدين . فالمرحلة الاولى تتمثل بعهد بطرس الاكبر[٢٤]، الذي قام بعد اعتلائه العرش عام ١٦٨٢ بإصلاحات وتطورات داخلية وخارجية ضرورية للنهوض بروسيا وتقوية نفوذها الدولي ، والتقدم في مختلف ميادين العمران والاقتصاد والسياسة والتسلح ، وعمل جاهداً لجعل روسيا دولة اوروبية مرموقة عن طريق اخراجها من عزلتها عن العالم المتحضر، مما سبب تنافساً دبلوماسياً قوياً جداً بين الدول الاوروبية على بسط النفوذ والتقارب من الدولة العثمانية[٢٥].

كانت ابرز معالم تلك الإصلاحات إنشاء جيش حديث عام ١٦٩٦، وتشجيع التجارة بشكليها الداخلي والخارجي بوساطة تهيئة الظروف الملائمة لتصدير البضائع الى الخارج وحماية المنتجات الداخلية بتحديد استيراد البضائع الاجنبية التي من الممكن انتاجها في روسيا وذلك بفرض الضرائب الكمركية العالية عليها. وطبق القيصر بطرس الاكبر سياسة المركنتيلية[٢٦] وذلك من اجل زيادة التصدير على الاستيراد وتوفير رؤوس الاموال النقدية في البلاد . وكانت اهم مواد التصدير هي التيل والكتان والشحوم والحديد والجلود المدبوغة والاخشاب ، اما مواد الاستيراد فهي الاجواخ والاصباغ والخمور والسكر والأنسجة القطنية[٢٧].

وبعدها التفت بطرس الاكبر الى جارته الكبرى الدولة العثمانية وجعل التوسع في منطقة البحر الاسود الشمالية ركناً مهماً في سياسته الخارجية . وبغض النظر عن ذلك فقد دفعت الضرورات الاقتصادية ونمو الانتاج الزراعي روسيا دفعاً قوياً لايجاد منفذ يؤدي الى مياه البحر الدافئة التي لاتتجمد في فصل الشتاء ، في سبيل تصدير بضائعها . وكانت اهمية البحر الاسود كبيرة جداً للتجارة الروسية ، وذلك لان العديد من الانهار الأوروبية تصب فيه . غير أن البحر الاسود كان بحوزة العثمانيين الذين منعوا السفن الروسية من الملاحة فيه واغلقوا ممراته الى البحر المتوسط بإحكام أمامها . علماً أن الدولة العثمانية أدركت أن بطرس الأكبر كان يتطلع ايضاً إلى المضائق ومن خلفها البحر المتوسط[٢٨].

اما المرحلة الثانية ، وهي عهد الامبراطورة كاترين الثانية[٢٩] (Catherine II) (١٧٦٢-١٧٩٦)، فكانت ابرز معالمها تحويل البحر الاسود الى بحيرة روسية وتأمين مرور السفن التجارية الروسية عبر المضائق الى البحر المتوسط ، وكذلك حماية رعايا الدولة العثمانية من الأرثوذكس . وشهدت روسيا في عهدها تطوراً اقتصادياً كبيراً[٣٠]، وعند ذلك اصبحت الحاجة ملحة للبحث عن الاسواق وعن مصادر للخامات وعن طرق مائية صالحة لتسهيل عملياتها التجارية ، لكون روسيا بلداً قارياً يفتقر الى المنافذ البحرية ، فالمحيط المنجمد الشمالي مغلق بسبب الثلوج معظم ايام السنة ، فكانت تأمل في الحصول على منفذ يوصلها الى المياه الدافئة[٣١]، لذلك اتجهت انظارها الى مناطق الشرقيين الأوسط والأقصى ، وفي اطارين تجاري وديني[٣٢].

تابعت الإمبراطورة كاترين الثانية سياسة سلفها القيصر بطرس الاكبر الخارجية والعمل على تحقيق اهدافه في توسع روسيا القيصرية[٣٣]. فقامت سياستها الخارجية في القضاء على استقلال بولندا واضعاف الدولة العثمانية ، وإزالتها من الوجود والوصول إلى بلاد الشام واستنبول وتنفيذ مآربها في المشرق ، والملاحة في البحر الاسود وتصدير الحبوب من جنوب روسيا[٣٤]. إلا أن تلك السياسة قد اثارت حفيظة الدول الأوروبية الأخرى كفرنسا وبريطانيا اللتين حاولتا كسب مواقع جديدة لهما من ضمنها بلاد الشام ، في الوقت نفسه كان للتدخل الروسي أثره الكبير في دفع بريطانيا للولوج بقوة الى ولايات بلاد الشام ، حيث أدركت

بريطانيا خطأ موقفها السلبي إزاء السماح بالتدخل الروسي ، اذ كانت بريطانيا ودبلوماسيوها متخوفين من تحرك وزيادة رجال الاسطول الروسي ودول اخرى وهم يمخرون عبر موانئ مناطقها في طريقهم الى البحر المتوسط، ما اضطرها إلى الدفع بقناصلها في ولايات بلاد الشام بالكتابة إلى سفيرهم على ابرام صلح سريع بين الدولة العثمانية وروسيا[٣٥].

أدت النزعة الروسية للتوجه الى المياه الدافئة إلى جعل الدولة العثمانية العدو الابرز لروسيا[٣٦]. فنظر الروس إلى المنطقة باهتمام، فكانت روسيا متلهفة جداً، بكونها دولة حديثة التطور نسبياً، تسعى للحصول على مكاسب استعمارية، وأنها بحاجة لمد أذرع النفوذ والسيطرة باتجاه المياه الدافئة ليتسنى لها اشباع رغباتها المتنوعة. لذا كان الروس ينظرون الى المنطقة باهتمام في أثناء تلك المدة، لعدم قدرتهم على التوسع باتجاه أوروبا[٣٧]. وسعت الدولة العثمانية إلى إبقاء الروس في ما وراء البحر الاسود ، دون السماح لهم بالوصول الى البحر المتوسط، إلا اذا كان ذلك لسفنهم التجارية التي كانت هي الاخرى تفرض عليهم قيود ثقيلة[٣٨].

واصلة روسيا سياستها التوسعية على حساب الدولة العثمانية مستغلة كل حادثة اقليمية او دولية لتحقيق ذلك. فعندما تدخلت الدولة العثمانية عام ١٧٦٨ في المسألة البولندية (وهي غزو روسيا لبولندا واتخاذها مركزا لاثارة المشاكل ضد العثمانيين) بتحريض من فرنسا بهدف استعادة بودوليا لقاء مساعداتها للثوار البولنديين، استغلت كاترين الثانية المناسبة لتنفيذ مآربها في المشرق. والواقع ان تأخر العثمانيين في إعلان الحرب، افسح المجال أمام روسيا لاستكمال استعداداتها العسكرية[٣٩].

وفي الحرب التي استمرت ست سنوات، تم تدمير الأسطول العثماني بعد وصول اسطول روسي من بحر الشمال الى بحر ايجة مستفيداً من الحياد البريطاني. كما انزلت روسيا قواتها في اليونان وبيروت للتحريض على الثورة. كذلك استولت روسيا على القرم بعدما احبطت المقاومة العثمانية في البحر الاسود.[٤٠].

أدت هزيمة العثمانيين الى توقيعهم معاهدة كوتشك كينارجي[٤١] بتاريخ الحادي والعشرين من تموز عام ١٧٧٤ التي تُعد في التاريخ السياسي نقطة تحول مهمة في علاقات الدولتين وفي النفوذ الروسي في الشرق، وبمقتضى هذه المعاهدة حصلت روسيا على حقوق وامتيازات كبيرة من الدولة العثمانية . فبموجب المادة الحادية عشر منها حصلت روسيا على حرية التجارة والملاحة لرعاياها في كافة البحار التي تطل عليها الدولة العثمانية وتحديداً حرية العبور من البحر الأسود إلى البحر المتوسط وبالعكس[٤٢].

إن فتح المجال البحري أمام روسيا القيصرية للوصول الى المياه الدافئة في البحرين الاسود والمتوسط اثار سخط الكثيرين اعتقاداً منهم بأن تلك المنطقة كانت مغلقة بإستمرار في وجه محاولات النفاذ اليها من قبل الدول الأوروبية، ولكن واقع الحال شهد خلاف ذلك. فإن أياً من البحرين الأسود والمتوسط لم يكن مغلقاً أبداً في وجه الآخرين تماماً ، لكن الدولة العثمانية أحسنت استعمال تلك الورقة التجارية المؤثرة جداً عبر مدة طويلة ، فسمحت ومنعت من شاءت بحسب ما اقتضته مصالحها[٤٣].

ولم يمضِ وقت طويل حتى أقرت الدولة العثمانية لروسيا، وفي معاهدات عدة بالامتيازات، إذ إن الهزيمة التي منيت بها الدولة العثمانية في حروبها مع روسيا احلت النفوذ الروسي محل النفوذ الفرنسي في القسطنطينية بعد معاهدة كوتشك كينارجي، وبذلك حذت روسيا حذو فرنسا، فحصلت على امتيازات مماثلة في عامي ١٧٧٤ و ١٧٨٣ وكانت هذه الامتيازات في ذلك الوقت مجرد منحة من السلطان العثماني للدول الصديقة وتدوم طوال حياته[٤٤].

ان وجه الاختلاف بين الامتيازات الروسية في مجال التجارة من جهة، وبين ما حصلت عليه فرنسا وبريطانيا في الماضي من جهة اخرى، ليس الفارق الزمني في نيل تلك الامتيازات بقدر الظروف العسكرية الميدانية الحرجة التي مرت بها الدولة حينها التي سلبتها من البدائل الأخرى. فروسيا لم تحصل على تنازلات غير جائزة ، وإنما أرغمت عليها الدولة العثمانية في تلك الظروف على اقل تقدير . كما اعتمد العثمانيون دائماً على تفضيل الدول المنافسة من اجل كسر الهيمنة التجارية التي مارستها بعض الدول المناوئة او المنافسة

والتي لم تكن تذعن لمطالب الدولة العثمانية، ولهذا تدرجت الدولة في منح التسهيلات التجارية[٤٥].

وبإنتهاء القرن الثامن عشر ، أصبحت روسيا دولة كبرى وصاحبة المركز المتفوق في شرق البحر المتوسط ، الأمر الذي هدد بدوره المصالح البريطانية في الهند . كما امتلكت ميناءين ، الأول على بحر الشمال ، والثاني على البحر الأسود . كذلك استطاعت ان تحقق تقدماً سريعاً في تحديث وتطوير الحياة الاقتصادية والتجارية إلى حد ما[٤٦].

ثالثاً: النشاط التجاري الروسي في بلاد الشام منذ القرن التاسع عشر حتى مطلع القرن العشرين

اتسعت التجارة الروسية في النصف الاول من القرن التاسع عشر على نحو كبير، اذ ازدادت حصة التجارة الروسية عبر البحر الأسود من (٥.٥%) من إجمالي التجارة الروسية عام ١٨٠٢ الى (٩.١٢%) بالمقارنة مع عام ١٨٠٥. وبدأ الحديد الروسي يكتسح الأسواق في بلاد الشام ، وبدأت روسيا بإستيراد الليمون والموز والسجاد والتبغ الجبلي من موانئ صيدا وطرابلس وحيفا[٤٧]، إلى أن أصبح هناك خط تجاري بحري يربط ميناء اوديسا الروسي بالموانئ السورية في رحلة منتظمة تصل يوم الاحد كل اسبوعين[٤٨]، وتلا ذلك تدفق البضائع الروسية على الدولة العثمانية بشكل متزايد[٤٩].

وفي ثلاثينيات القرن التاسع عشر افتتحت وكالات قنصلية لروسيا في حلب واللاذقية وبيروت وصيدا[٥٠] ولم يكن الوكلاء القنصليون، الذين كانوا بأغلبهم من التجار المحليين والتجار الأوروبيين المقيمين في سورية ، يتلقون أجراً . وكان هذا العمل قد وفر لهم تقديراً معيناً وفوائد مرتبطة بالامتيازات التجارية والسياسية التي شملت الرعايا الروس . وكانوا يؤدون واجباتهم على نحو رديء . ففي ايلول عام ١٨٣٩م شكا القنصل العام الكونت ميديم[٥١] (Mediem) الى السفير الروسي بوتينيف[٥٢] (Boutenieff) في القسطنطينية ، ان الوكلاء الذين يمارسون النشاط التجاري يخافون الأضرار بعلاقاتهم بالموظفين الأتراك، ولذلك يدافعون على نحو سيء عن مصالح الروس[٥٣].

لم يغب النشاط التجاري المتزايد للدول الأوروبية الغربية عن أنظار روسيا[٥٤]، اقلق اوساطها الحكومية، لان ازدياد نفوذ اية دولة في أي جزء من الإمبراطورية العثمانية كان يعقد المسألة الشرقية[٥٥]، إحدى المسائل الأساسية في السياسة الخارجية للقيصر نيقولا الأول[٥٦] (Nicholas I). ومع ان الاهتمام الأساسي للحكومة القيصرية كان منصباً على استنبول والمضائق ، فأن معاهدة هنكار اسكله سي في ٨ تموز ١٨٣٣ فتحت آفاق التدخل في شؤون استنبول أيضاً[٥٧].

وبعد حرب القرم[٥٨]، التي انطلقت من عقالها لاسباب كان من بينها كما هو معروف مطالبة روسيا الاعتراف بحمايتها على جميع رعايا السلطان الأرثوذكس ، أسست (شركة الملاحة والتجارة الروسية) عام ١٨٥٦ التي كان من شأنها ان تزاحم خطوط البحر المتوسط الفرنسية والنمساوية وان تنتزع منها بشكل خاص اشغال نقل الحجاج الروس الى فلسطين، لان الأخيرين يمثلون الفصيل الاقوى في سيل الحجاج السنوي الى الارض المقدسة. وعليه اقترح ارسال مبعوث الى القدس يجمع في شخصه بين صفة ممثل شركة الملاحة وصفة قنصل روسيا . وعلق الرحالة المستشرق وعالم الآثار الروسي بورفيري اوسبنسكي Porfiri Uspenski (١٨٠٤ – ١٨٨٥) على المشروع بحماسة قائلاً : " ان الأرثوذكس سوف ينتصرون في النهاية . إن القسطنطينية ستصبح لنا ، ينبغي ان يكون لنا ممثلون في كل مكان في المشرق العربي . ينبغي أن يكون لنا شركة ملاحة وقناصل وتجار ومبالغ كبيرة من المال . كل هذا ضروري من اجل دعم الأرثوذكسية ورفع شأنها " . وهكذا وصل الى القدس عام ١٨٥٨ في وقت واحد اسقف روسي وقنصل روسي/ وكيل شركة ملاحة[٥٩].

وبدأ في السنوات التالية نشاطاً محموماً لروسيا أسوةً بالأوروبيين الغربيين ، فقد اشتريت الاراضي وبنيت الكنائس والنزل والمدارس ...الخ. في فلسطين، لتأسيس الوجود الروسي بصورة أكثر فعالية. وكان أكثر المجمعات البنائية مهابة ، (المبنى الروسي)[٦٠] الذي قام على ابواب القدس ولم يكن له نظير في سائر مشاريع البناء الأوروبية . كما تلقت النشاطات الروسية دفعة جديدة مرة أخرى لدى عمل وكلاء القناصل الروس (الذين كانوا هم

أنفسهم وبأكثريتهم الساحقة تجاراً ورجال أعمال وملاكين وحتى ملتزمين بجمع الضرائب) وممثلي البيوت التجارية الأوروبية في الاساكل[٦١] (الموانئ) ووسطائهم او شركائهم في داخل من بلاد الشام كوسطاء لتلبية الطلب ولتكييف الإنتاج وفق متطلبات السوق الأوروبية . فمثلاً كان في غزة ثلاثة مصابن كبيرة لصناعة الصابون ، اثنتان منها كان يديرهما مسيحيان (وكيل القنصل الروسي ووكيل القنصل النمساوي) ، اما الثالثة فكان يديرها تاجر مسلم، لم تكن المصابن الثلاثة تعمل، إلا في فصل الشتاء، اما في فصل الصيف فكانت تستعمل كمخازن للحبوب[٦٢].

أنتجت بلاد الشام في المدة موضوع الدراسة فائضاً زراعياً كبيراً نسبياً كان يصدر الى البلدان المجاورة مثل مصر وآسيا الصغرى ، وكذلك إلى أوروبا التي كانت الصادرات إليها تزداد بإضطراد . وكانت المحاصيل والسلع المصدرة هي القمح والشعير والذرة والقطن والسمسم وزيت الزيتون والصابون والبرتقال وغيره من الفواكه والخضراوات. والمستوردون الرئيسيون كانوا فرنسا وانكلترا وروسيا واليونان وألمانيا والنمسا[٦٣].

ومن الجدير بالذكر صُدرت إلى روسيا الكميات الأكبر من برتقال يافا ، فمنذ عام ١٨٧٥، وشهدت هذه التجارة عبر مسافات بعيدة انتعاشاً جديداً عندما أصبح البرتقال يعبأ بصورة أفضل ويشحن في صناديق ، ولكن البرتقال الشمّوطي البيضوي الشكل والغليظ القشرة هو وحدهُ الذي يصلح للشحن الى روسيا ودول أوروبا الأخرى لتحمله النقل بمسافات طويلة دون تلفه. اما البرتقال البلدي المستدير والأصغر حجماً فكان يباع في الأسواق المحلية والأسواق الاقليمية، كما استوردت من موانئ بلاد الشام الفستق والليمون والكرز المجفف والسجاد والبسط والأثاث الشرقي (منتجات الصناعات الخشبية)[٦٤].

الى جانب ذلك أشتهرت ولايات بلاد الشام بصناعة تحف التعبد والتذكارات السياحية، فكانت الصلبان والمسابيح تصنع من مواد مختلفة ، لا سيما من خشب الزيتون ومن نوى شجر الدوم (فاكهة شبيهة بالتفاح وبحجم بيضة الدجاجة وهي من ثمار النخيل) التي كانت تأتي به من شبه جزيرة العرب . ومن البحر الاحمر كانت تجلب كميات كبيرة من الصدف ، الذي كانت تصنع منه أيضاً الصلبان والمسابح والمداليات الكبيرة ...الخ.

ومن البحر الميت كان يؤتى بما يدعى بـ(حجر موسى)[٦٥]، وتصنع منه الاقداح وصحاف الطعام ودوايات الحبر. وكان قسم من هذه الادوات يباع الى الحجاج في فلسطين، وقسم اخر يصدر الى أوروبا، ولا سيما الى روسيا[٦٦].

شهدت روسيا في نهاية القرن التاسع عشر تطوراً سريعاً في الإنتاج الصناعي مما دفعها للبحث عن اسواق خارجية لتصريف منتجاتها الصناعية، وكانت بلاد الشام إحدى تلك المناطق التي اتجهت انظار البرجوازية الروسية إليها . ونتيجة لذلك شهدت العلاقات التجارية مابين روسيا وبلاد الشام نمواً متزايداً بإعتبارها جزءاً من نمو العلاقات التجارية الروسية العثمانية[٦٧].

بدأت الصادرات الروسية للأسواق العثمانية في التطور بعد الثمانينيات من القرن التاسع عشر، وعلى هذا الاساس فإن المواد الغذائية المصنعة في جنوب روسيا واهمها السكر الناعم والمشروبات الروحية والمعجنات والدقيق ، والصناعات المعدنية من القفقاس وخاصة النفط، كان لها مكان متميز في أسواق الامبراطورية العثمانية، التي تعد أسواق بلاد الشام جزءاً منها. كما استوردت موانئ بلاد الشام الحديد الروسي والأخشاب الصنوبرية لأعمدة الهواتف ولسكة حديد الحجاز . كذلك استوردت السماور الروسي الذي استفاد منه الحجاج المسلمون ، والمناديل والشالات الروسية من بخارى ، اضافة الى الخزفيات واثاث الكنائس وفراء الحيوانات والاحذية المطاطية والاقمشة . ومن الجدير بالذكر ان روسيا اهتمت ببلاد الشام كسوق لتصريف منتجاتها وليس للحصول على المواد الاولية في الصناعة[٦٨].

ومما ساعد على تقوية وتطوير العلاقات التجارية بين روسيا وبلاد الشام تنظيم (المعرض الصناعي الزراعي) المتجول والعائم للمنتجات والسلع الروسية الذي نظمته شركة الملاحة والتجارة الروسية على ظهر الباخرة الروسية نيقولا الثاني (Nicholas II) التي تمتلكها. واشتركت وزارة الصناعة الروسية في تكاليف إنشاء هذا المعرض، اذ ساهمت فيه مائة وخمسون مؤسسة صناعية وتجارية روسية . وكان الهدف الأساس من وراء تنظيم هذا المعرض هو اطلاع التجار العثمانيين على المنتجات الصناعية والزراعية في روسيا، وبدأ

هـذا المعـرض رحلتـه الاولـى عـام ١٩١٠ مـن مينـاء اوديسـا ثـم اسـطنبول وسـلانيك ، والاسكندرية وبور سعيد وحيفا وطرابلس والاسكندرونة وسمسون وطرابزون[٦٩].

انعكسـت محـاولات الحكومـة الروسـية الهادفـة الـى تقويـة علاقاتهـا التجاريـة مـع الامبراطوريـة العثمانيـة علـى بـلاد الشـام، فأنهالـت الطلبـات الكثيـرة للمؤسسـات والشـركات الروسية علـى القنصـليات الروسـية فـي بـلاد الشـام طلبـاً لتصـدير منتجاتهـا الـى اسـواق بـلاد الشـام، وبـالعكس ازدادت طلبـات تجـار بـلاد الشـام لاسـتيراد البضـاعة الروسـية . وفـي هـذا الصـدد بلـغ عدد المؤسسـات التجاريـة الروسـية فـي بـلاد الشـام حتـى عـام ١٩١٢ نحـو اثنتـان وأربعين مؤسسة تجارية[٧٠]، اشهرها (شركة النفط الروسية) التي كان لها وكالات في كل من دمشـق والاسكندرونة وحلب وطرابلس وحيفا ويافا والقدس وغزة ونـابلس وصـفد . و(مؤسسـة التجارة الروسية الشرقية) التي تأسست في بيروت عام ١٩١٢، وكان مساهموها من التجار الذين ارتبطوا بعلاقات تجارية مع روسيا. وفي السنة نفسها تم تأسيس (شركة الصادرات النفطيـة الروسـية – العثمانيـة – السـورية) وتمثلـت نشـاطاتها بإسـتيراد الـنفط الروسـي وطـرق بيعه وتحديد أسعاره . كذلك برز في بلاد الشام بعض التجار الذين يملكون تبعية روسية ، وقد أدى هؤلاء دوراً فعالاً في تقوية العلاقات التجارية بين بلاد الشام وروسيا[٧١].

وعلـى هـذا الأسـاس تعـززت العلاقـات التجاريـة بـين روسـيا وبـلاد الشـام ، وبـذلك استوردت روسيا من بلاد الشام مواد أولية ضرورية لصناعاتها ونموها الاقتصادي، وباعت في تلك الولايات مصنوعاتها الاستهلاكية، فضلاً عن أنها صدرت بضاعة مصنفة ومنتجة من المناطق الجنوبية في روسيا التي أصبح لها مركزاً مهماً في أسواق بلاد الشام .

الخاتمة

منذ سقوط القسطنطينية في ايدي العثمانيين عام ١٤٥٣، ظلت العوامل والاقتصادية بذرائع دينية تدفع روسيا للسيطرة على الممرات العثمانية وعاصمتها، عبر الممرات إلى البحر المتوسط في سبيل تأمين تجارتها وتنفيذ ادعاءاتها في وراثة الإمبراطورية البيزنطية . وعن طريق التوسع العسكري وأخرى بالطرائق الدبلوماسية، أعلنت روسيا مراراً عن سياستها التقسيمية للدولة العثمانية، إلا أن خططها اصطدمت في كل مرة بمصالح دول أوروبية أخرى . فالنمسا كانت تنازعها الزعامة على البلقان ، في حين عارضتها بريطانيا وفرنسا القضاء على الدولة العثمانية لاسباب استراتيجية واقتصادية . ونتج عن تضارب مصالح الدول الأوروبية في السلطنة العثمانية ، تأزم متواصل في العلاقات الروسية – العثمانية ، إذ دارت الحرب بين الطرفين منذ عام ١٥٦٨ وحتى الحروب البلقانية (١٨٧٧ – ١٨٧٨).

وعلى الرغم من اندحار روسيا في حرب القرم وموقف الدول الأوروبية الكبرى ولاسيما انكلترا وفرنسا الهادف الى تحجيم نفوذها في الأقاليم العثمانية . أكدت روسيا نشاطاً تجارياً واسعاً، أسوةً بالدول الأوروبية الأخرى، فقد أسست الشركات والمؤسسات الاقتصادية الروسية في بلاد الشام ، وأصبحت لها علاقات تجارية قوية بإقاليم الإمبراطورية العثمانية .

ومنذ آواخر القرن التاسع عشر الميلادي شهدت روسيا تطوراً سريعاً في الإنتاج الصناعي ما دفعها للبحث عن أسواق خارجية لتصريف منتجاتها الصناعية، فكانت بلاد الشام إحدى تلك المناطق التي اتجهت أنظار البرجوازية الروسية إليها كسوق لتصريف المصنوعات والبضائع الروسية وليس للحصول على المواد الأولية في الصناعة، لذلك شهدت العلاقات التجارية مابين روسيا وبلاد الشام نمواً متزايداً.

ومن الجدير بالذكر القول بأن مسألة حماية المسيحيين الأرثوذكس بالنسبة لروسيا مثلت مفتاحاً واحداً من عدة مفاتيح لبسط السيطرة على الدولة العثمانية ، وهو دور أثبت فاعلية في بلاد الشام لاسيما أن النشاط التجاري الذي رافقه تغلغل اقتصادي تجاري، كان الأداة الأهم في يد السياسة الروسية في شرقي البحر المتوسط.

وفي ضوء ما تقدم يظهر ان النشاط التجاري الروسي في بلاد الشام شكل مدخلاً مهماً سهل مهمة التغلغل الاقتصادي نتيجة الحاجة الى الاسواق الخارجية . ومن المنطلقات ذاتها ، يبدو ان النشاط التجاري الروسي في بلاد الشام، كان استعماراً اقتصادياً بطيئاً وخفياً ، أشبه ما يكون بالاستعمار الحديث القائم على استغلال الشعوب اقتصادياً .

الهوامش

(١) سميت روسيا نسبة للروس الذين ينتمون الى العنصر السلافي وهم مجموعة من القبائل التي سكنت أراضي أوروبا الوسطى والشرقية منذ القرن الأول الميلادي في المناطق التي تمتد من جبال الكربات غرباً حتى نهر الفولغا شرقاً، ومن بحر البلطيق شمالاً حتى مصب نهر الدنيبر والدانوب في البحر الأسود جنوباً، وقد أطلق الرومان على هذه المجموعة من القبائل مصطلح السلاف وهي كلمة لاتينية تعني الرقيق وذلك لان التجار الرومان كانوا يشترون اطفال هذه القبائل ، وقد حورت الكلمة الى اللغة العربية بـ(الصقالبة). أما كلمة روس فقيل إنها نسبة إلى إحدى قبائل الألف السرماتية المسماة بالقبيلة الساطعة التي اطلق عليها اسم (Rus) باللغة السريانية في القرن السادس الميلادي. اما موقعها الجغرافي فيحدها من الشمال المحيط المنجمد وشرقاً اسيا الوسطى وجنوباً بلاد القوقاز والبحر الاسود وغرباً رومانيا والمانيا وبحر البلطيق وبولندا. عبد القادر احمد اليوسف، العصور الوسطى الاوربية ٤٧٦- ١٥٠٠، بيروت، ١٩٤٧، ص٣٢١-٣٢٢.

(٢) ابو القاسم عبيد الله ابن خرداذبة ، المسالك والممالك ، دار صادر أفست ليدن ، بيروت ، ١٨٨٩م، ص٦٥٤.

(٣) عبد القادر احمد اليوسف، المصدر السابق، ص٣٢٥ .

(٤) في عام ٩٨٨م اعتنق احد امراء الروس فلاديمير (Vladimir)أمير امارة كييف المسيحية على المذهب الأرثوذكسي وفرضها على إتباعه للقضاء على الديانات الوثنية المتعددة . وذكر في إحدى الروايات التاريخية ان سبب اعتناق هذا الأمير المسيحية ، هو إنه تقابل مع اربعة وفود دينية تمثل الإسلام والكاثوليكية الأرثوذكسية واليهودية ، وبعد مناقشة حادة مع أعضاء هذه الوفود قرر فلاديمير إعتناق المسيحية على المذهب الأرثوذكسي . وقيل انه رفض الاسلام لتحريمه الخمر .

Maureen Perrie(ed.) The Cambridge history of Russia, Vol.1 , Cambridge University , Press, 2001, P.24;

محمود سعيد عمران، تاريخ اوربا في العصور الوسطى، بيروت، ٢٠٠٦، ص٣٧٤.

(٥) تقع على الضفة الغربية لمضيق البسفور ، بين أوروبا وآسيا، بين البحر الأسود وبحر مرمرة، أُسست في عام ٣٣٠م على يد الإمبراطور البيزنطي قسطنطين الأول، تُعد من أهم المدن العالمية ، تنافس خلفاء المسلمين وقادتهم على فتحها عبر العصور المختلفة ، وجرت عدة محاولات لفتحها ففتحها محمد الفاتح في عام ١٤٥٣م وأصبحت تسمى (اسطنبول) أي مدينة السلام. علي حسون، تاريخ الدولة العثمانية وعلاقاتها الخارجية، ط٤، المكتب الإسلامي، بيروت،٢٠٠٢، ص٣١-٣٩؛ علي محمد محمد الصلابي،الدولة العثمانية عوامل النهوض والسقوط ، ط٦، دار المعرفة، بيروت ٢٠١٠،ص١٠٢-١٢٩.

(٦) حسن علي ، العثمانيون والروس ، دمشق ، ١٩٨٢ ، ص ١٢.

(7) M. Anderson, The Eastern Question 1774-1923, London, 1966, P.39 ;

عبد الرؤوف سنو، العلاقات الروسية العثمانية (١٦٨٧-١٨٧٨) سياسة الاندفاع نحو المياه الدافئة (الحلقة الاولى)، مجلة تاريخ العرب والعالم،العدد ٧٣-٧٤، بيروت، ١٩٨٤، ص٢ .

(٨) هو ملك روسي لقب بايفان الكبير Ivan The Great ، حكم من عام ١٤٦٢ الى ١٥٠٥ ، قضى على هيمنة التتر وأحكم تنظيم شؤون الدولة، ونمت في عهده بدايات اجهزة الادارة المركزية . نور الدين حاطوم ، تاريخ القرن السابع عشر في اوربا، دمشق،١٩٨٦، ص٣٣٢.

(٩) محمد فريد بك المحامي، تاريخ الدولة العلية العثمانية، ط١، دار الجيل،بيروت،١٩٧٧، ص٧٠؛ سمير عنجوري، العلاقات الخارجية في العالم الإسلامي ، المركز السوري للدراسات الإستراتيجية، ٢٠١٣، ص١٢.

(١٠) وهو الابن الاكبر للسلطان محمد الفاتح . كان شجاعاً وعطوفاً وعاقلاً ومتديناً، وكان ميالاً للسلم محباً للعلوم الأدبية ، وقد أطلق عليه (بايزيد الصوفي) لكثرة المسالمة ولكنه اضطر لخوض غمار بعض الحروب الداخلية والخارجية ، دخل المدرسة الشرعية الاسلامية، جمع شعراء عصره وتحادث معهم مثلما كان يفعل والده، وكتب الكثير من الاشعار، وكان يعرف العربية والفارسية جيداً ، ويلم بالفلسفة والرياضيات ، وقد امضى في الحكم احدى وثلاثون سنة (١٤٨١- ١٥١٢). علي حسون ، تاريخ الدولة العثمانية وعلاقاتها الخارجية ، ص ٤٠-٤١ ؛ ابراهيم بك حليم ، تاريخ الدولة العلية (التحفة الحليمية في تاريخ الدولة العلية)، ط١، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع،القاهرة، ٢٠٠٤، ص١٠٥-١١٢.

(١١) علي حسون، العثمانيون والروس، دمشق، ١٩٨٢، ص٦٣؛ علي سلطان،تاريخ الدولة العثمانية، طرابلس، ١٩٩٤، ص ٧٥.

(١٢) يعد الفرو الروسي البضاعة تجارية المهمة منذ زمن بعيد ، إذ أن حاجة القصر العثماني إلى هذه البضاعة هائلة ، ففراء القاقم تكسو حواشي الثياب التي يرتديها الأمراء وأعيان الدولة ، وتهدى فراء باهظة الثمن الى الشخصيات التي يراد تكريمها . وكل من له قدرة وشحَ بها معطفه أو اتخذ منها قلنسوة أو دثاراً فضفاضاً ...الخ . والمكلف خصيصاً بإقتنائها من الباعة الروسيين هو احد موظفي السلطان. أندري كلو، غازي الغُزاة سُليمان القانوني، ترجمة: محمد الرزقي ، دار التركي للنشر ، تونس ، ١٩٩١ ، ص ٢٦٦ .

(١٣) StanFord, shaw , History of the ottoman Empire and modern Turkey , Cambridge University, Press , 1976, p. 73

(١٤) أمير روسي لقب بـ الرهيب (LeTerrible) ، حكم روسيا تحت لقب (امير موسكو الكبير) من عام ١٥٣٣ إلى ١٥٨٤ فضلا عن لقب (قيصر روسيا) من عام ١٥٤٧ إلى ١٥٨٤ . وهو أول من تلقب بالقيصر واستحق لقب (موحد الأراضي الروسية). شرع في فتح سيبيريا وفتك بأعدائه فتكاً ذريعاً واقر إصلاحاً آل إلى الزيادة في خضوع الاقنان والفلاحين. اندري كلو،المصدر السابق، ص ١٦؛ جان بيرنجيه وآخرون، أوروبا منذ بداية القرن الرابع عشر وحتى نهاية القرن الثامن عشر، ترجمة: وجيه البعيني، ج٢، بيروت،١٩٩٥، ص٣٦٤-٣٦٥؛ بييانوف – فيدوسوف، تاريخ الاتحاد السوفيتي ، ترجمة : خيري الضامن ونيقولا الطويل ، موسكو ، د.ت ، ص ١١٦.

(١٥) . م دانتسيغ، الرحالة الروس في الشرق الاوسط، ترجمة: معروف خزنة دار، دار الرشيد، بغداد، ١٩٨١، ص ٤٥.

(١٦) خليل اينالجيك، تاريخ الدولة العثمانية من النشوء الى الانحدار، ترجمة : محمد الارناؤوط، بيروت، ٢٠٠٢، ص ٧١ .

(١٧) وديع ابو زيدون ، تاريخ الإمبراطورية العثمانية من التأسيس إلى السقوط ، عمان ، ٢٠٠٣ ، ص ١٠٤.

(١٨) منذ القرن الثاني عشر حتى السادس عشر الميلادي ، تبين من خلال المعلومات التي دونها الرهبان والسياح الروس الذين زاروا مدن بلاد الشام ، ان هؤلاء اهتموا في تلك المرحلة اهتماماً كبيراً بوصف المدن ومواقعها ومرافقها العامة والاطلاع على حياة السكان اليومية وغيرها. ولم يهتموا بالجوانب التجارية والاقتصادية . ب. م . دانتسيغ، المصدر السابق، ص٥١-٥٢.

(١٩) نوري السامرائي، تطلعات روسيا القيصرية نحو فلسطين في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، مجلة المجمع العلمي، ج٤، مج٥١ ، بغداد، ٢٠٠٤، ص١٣٢-١٣٣.

(٢٠) ب.م دانتسيغ، المصدر السابق، ص٥١-٥٦.

(٢١) ولد في موسكو يوم ٩ حزيران ١٦٧٢، حرص اخاه فيدور (Vidor) على تعليمه اذ اتفق مع والدته على ايجاد معلم له فوقع الاختيار على نيكتيازوتوف (Nikitazotov) موظف الجباية ليكون معلمه، وذلك لكفاءته العالية في التدريس . وقد تعلم بطرس في سن الخامسة القراءة والكتابة، ثم بدأ يحفظ الكتاب المقدس، ودرس حياة الرسل والرسالة الانجيلية ، وأتقن اللاتينية والهولندية والبولندية وتعلم الرياضيات . تولى الحكم بمفرده في سن ٢٤ عاماً، شهدت روسيا في عهده تحولات واصلاحات كثيرة في مجالات مختلفة ، ونجح في بناء دولة قوية ترتقي الى مستوى الدول الأوروبية الراقية ، توفى عام ١٧٢٥. بوغانوف، حياة بطرس الاكبر ، ترجمة : خيري الضامن، دار التقدم، موسكو ،١٩٩٠، ص ١٢؛علي شعيب، بطرس الأكبر قيصر روسيا، دار الفكر، بيروت ١٩٩٢، ص١٦٥؛

Лев Николаевиц Гумиилёв, ОТ Руси до России Очерки этнической, Айрис Пресс, 2003, с.161.

(٢٢) أملت الاعتبارات الجغرافية على روسيا التطلع دائماً إلى ماعرف بالمياه الدافئة ، لأنه على الرغم من اتساع مساحة روسيا إلا أن معظم أجزائها أما تطل على بحار متجمدة لاتصلح للملاحة أو على بحار مقفلة ومضايق تقع تحت سيطرة دول أخرى، لذا كان من أهداف السياسة الخارجية الروسية العمل من اجل الوصول الى البحار المفتوحة (الدافئة) لتأمين حركة بواخرها التجارية والحربية من ناحية ولتدعيم مركزها في السياسة الدولية من ناحية اخرى . خيري عزيز، حول الاستراتيجية السوفيتية تجاه العالم العربي، مجلة قضايا عربية، العدد ١، السنة ٨، كانون الثاني ١٩٨١، ص١٥٩ .

(٢٣) مشعل مفرح ظاهر الشمري، حركة التبشير الروسية الارثوذكسية في القدس، مجلة كلية التربية الاساسية ، جامعة بابل ، العدد ٧ ، ايار ٢٠١٢ ، ص ١٦٥

(٢٤) فلاديمير لوتسكي ، تاريخ الاقطار العربية الحديث ، دار التقدم ، موسكو ، ١٩٩٢ ، ص٣٢.

(٢٥) مشعل مفرح ظاهر الشمري ، روسيا القيصرية في عهد القيصر بطرس الاكبر ١٦٨٩-١٧٢٥، اطروحة دكتوراه غير منشورة ، كلية الآداب ، جامعة البصرة، ٢٠٠٦ .

(٢٦) وهي مشتقة من كلمة (Mercontar) أي بائع بالايطالية نسبة الى الفرنسي انطوان دي مونكرتيان Antonine de Monchretien (١٥٧٥- ١٦٢١). الذي دعا الى التجارة والربح دون أي اعتبارات أخرى. وهي السياسة الاقتصادية للدولة الاقطاعية التي تؤكد على ان مصدر غنى البلاد هو مجال التبادل وليس مجال الانتاج . وكانوا ممثلو طور المركنتلية الاولى المسمى بالطور النقدي (الفضة – الذهب) في البلاد ، اما ممثلو المركنتلية المتطورة فكانوا يرون مصدر الغنى في زيادة التصدير للبضائع خارج البلاد على استيرادها وتدعى (نظرية الميزان التجاري الايجابي) ، وقد نفذها بطرس الاكبر في روسيا منذ مطلع القرن الثامن عشر، رمزي زكي،

التاريخ النقدي للتخلف، الكويت، ١٩٨٧، ص٣٩.

(٢٧) علي شعيب، المصدر السابق، ص ٧٣-٧٤ ؛

Stephen J. Lee , Peter the Great, 1st .ed London , routiedge, 1993 , pp. 56-57.

(٢٨) فلاديمير لوتسكي ، المصدر السابق ، ص ٣٣.

(٢٩) وهي من اصل الماني ، تولت حكم روسيا عام ١٧٦٢ م ، تابعت سياسة سلفها القيصر بطرس الاكبر الخارجية واهدافه في توسع روسيا القيصرية ، استطاعت احتلال بولندا وعملت على تقسيمها ، ابدعت في مجال التنظيم الإداري الداخلي للإمبراطورية الروسية وعملت على تقسيمها الى (٥٠) وحدة ادارية، وهو التقسيم الذي ظل موجوداً حتى قيام ثورة أكتوبر عام ١٩١٧م، توفيت عام ١٧٩٦م. علي جودة صبيح المالكي، روسيا القيصرية في عهد كاترين الثانية ١٧٦٢ - ١٧٩٦، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الدراسات، جامعة البصرة، ٢٠٠٩ .

(٣٠) احتلت روسيا في منتصف القرن الثامن عشر مكانة متقدمة في ميدان صهر الحديد والصلب على صعيد العالم حتى بلغ عدد مؤسسات التعدين فيها عام١٧٥٠م حوالي (١٠٠) مؤسسة. كمال مظهر احمد، دراسات في تاريخ إيران الحديث والمعاصر، منشورات وزارة الثقافة والفنون، بغداد، ١٩٨٥، ص١١.

(31) СЕРГЕЙ ВАЛЯНСКИЙ п ДМИТРИЙ КАЛЮЖНЫИ, КОНЕЦ РОССИЙСКОГО ГОСУДАВА, АСТ. Астрель ТРАНЗИТКНИГА, 2004, c.9

(٣٢) كمال مظهر احمد ، أضواء على قضايا دولية في الشرق الأوسط ، منشورات وزارة الثقافة والفنون ، بغداد ، ١٩٧٨ ، ص ٩.

(٣٣) علي جودة صبيح المالكي ، المصدر السابق ، ص ٣٩.

(٣٤) C. Valentine, The Middle Eastern Question O. Some political problem of India Defence, London, 1903, P.37;

عبد الرؤوف سنو ، المصدر السابق ، ص ٥٨

(٣٥) محمد علي داهش ، الدولة العثمانية والمغرب، اشكالية الصراع والتحالف، الموصل ، ٢٠٠٤ ، ص ١٤٢ .

(٣٦) جمال واكيم ، صراع القوى الكبرى على سوريا ، الأبعاد الجيو- سياسية لازمة ٢٠١١، ط١، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، بيروت، ٢٠١١، ص٧٠ .

(٣٧) وسام علي ثابت خلف، سياسة بريطانيا تجاه روسيا السوفيتية ١٩١٧- ١٩٢٤، اطروحة دكتوراه غير منشورة، كلية الآداب، جامعة بغداد، ٢٠٠٨، ص٩.

(٣٨) إبراهيم علوان ، مشكلات الشرق الأوسط ، الوطن العربي ، ج١، منشورات المكتبة العصرية ، صيدا، بيروت ، ١٩٦٨ ، ص ١٢.

(٣٩) عبد الرؤوف سنو، المصدر السابق، ص٤.

(40) Norman E. Saul, Russian and the Mediterranean 1979-1807, Chicago, London, 1970, PP.6-8.

(٤١) عقدت المعاهدة في مدينة كوتشك كينارجي في بلغاريا بين روسيا والدولة العثمانية ، بعد حرب دامت ست سنوات وتضمنت فصل شبه جزيرة القرم عن روسيا، ومنح رومانيا استقلالا ذاتيا،

وحق رعاية الأرثوذكس في الدولة العثمانية. فجاءت هذه المعاهدة ضربة قاسية فيما يخص السيادة العثمانية على البحر الاسود والمضائق، وبمقتضى هذه المعاهدة تحول البحر الاسود الى بحيرة روسية فأصبح لها الحق بإنشاء قواعد بحرية ، واستخدام سفنها التجارية المضائق في الدخول والخروج من هذا البحر. عبد العزيز محمد الشناوي، الدولة العثمانية دولة اسلامية مفترى عليها، ج١، مكتبة الانجلو مصرية، القاهرة ، ١٩٧٧ ، ص ١٦٩ ؛ سمير عنجوري، المصدر السابق ، ص ٨.

(٤٢) علي حسون، العثمانيون والروس، ص٨٣؛ علي محمد محمد الصلابي ، المصدر السابق ، ص٣٤٦-٣٤٨.

(٤٣) ليلى الصباغ ، الجاليات الاوروبية في بلاد الشام في العهد العثماني في القرنين السادس عشر والسابع عشر، العاشر والحادي عشر الهجريين، ج١، ط١، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨٩، ص ١٢٥ .

(٤٤) محمد علي الغتيت، الغرب والشرق من الحروب الصليبية الى حرب السويس، مطابع الر القومية، د.ت، ص١٩٥ ؛ علي محافظة، موقف فرنسا والمانيا وايطاليا من الوحدة العربية ١٩١٩-١٩٤٥، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ١٩٨٥، ص١٤-١٥.

(45) -Kemal H. karpat (ed.), The Ottoman State and Its place in World History , 6.L.Brill, Leidin , 1974, p.56.

(٤٦) عبد الرؤف سنو ، المصدر السابق ، ص٥.

(٤٧) مارينا بانتسكوفا ، جذور الأزمة اللبنانية والعدوان الاستعماري على سوريا 1860، دار المعارف، بيروت، ١٩٩١، ص٢٨١؛ منذر محمود جابر، روسيا واورثوذوكس الشرق، منشورات جامعة البلمند،طرابلس، لبنان، ١٩٩٨، ص ٢١٦.

(٤٨) ناصر زيدان ، دور روسيا في الشرق الاوسط وشمال افريقيا من بطرس الاكبر حتى فلاديمير بوتين ، ط١ ، الدار العربية للعلوم ، بيروت ، ٢٠١٣ ، ص ٦٨-٦٩.

(٤٩) ازداد تدفق البضائع الروسية على الدولة العثمانية بشكل كبير في النصف الاول من القرن التاسع عشر ، فقد نمت نسبة صادرات روسيا إليها من (٢,٥%) من مجموع صادراتها لعام ١٨٢٩ الى (٤.٦%) بالمقارنة مع عام ١٨٥٣. وازدادت قيمتها من (٤٨٠٠٠٠٠) جنيه استرليني في السنة الاولى الى (٦٧٠٠٠٠٠) جنيه استرليني بالمقارنة مع السنة التالية. هاشم صالح التكريتي، المسالة الشرقية المرحلة الأولى 1774-1856، ط٢، دار ومكتبة عدنان للطباعة والنشر، بغداد، ٢٠١٥ ، ص ١٦.

(٥٠) ان اول مركز قنصلي روسي أقيم في يافا عام ١٨٢٠ . قسطنطين بازيلي سورية وفلسطين تحت الحكم العثماني ، ترجمة : طارق معصراني ، دار التقدم ، موسكو، ١٩٨٩، ص٥.

(٥١) دبلوماسي وعسكري ورجل دولة روسي عينته وزارة الخارجية الروسية بمنصب قنصلاً عاماً لروسيا في الإسكندرية وقام بتنظيم العمل القنصلي الروسي، إذ كان يخضع له في ذلك الحين القناصل والوكلاء الروس المقيمين في سورية ، اضطلع بدور ملحوظ في تنفيذ السياسة القنصلية الروسية، إذ رفع مرتبة القنصلية الروسية بقوام السلك القنصلي في بيروت الذي كانت قد ترسخت فيه حتى ذلك الحين قنصليات الدول الأوروبية. المصدر نفسه، ص ٦ .

(٥٢) هو بوتينيف اوليناري بيتروفيتش، دبلوماسي بدأ العمل في وزارة الخارجية عام ١٨٠٤. عين في عام ١٨١٦م سكرتيراً للسفارة الروسية في القسطنطينية ، حيث بقى حتى عام ١٨٢١ ، ساهم

في الحرب الروسية التركية عامي(١٨٢٨ -١٨٢٩) . بعد عقد معاهدة الصلح في ادرنة عين قائماً بأعمال السفارة ، واصبح منذ عام ١٨٣٠ سفيراً في القسطنطينية وشغل من عام ١٨٤٣ الى عام ١٨٥٦ منصب وزير مفوض في روما . في عام ١٨٥٦ عين بوتينيف عضواً في مجلس الدولة وارسل مجدداً وزيراً مفوضاً الى القسطنطينية إذ بقى حتى عام ١٨٥٨. المصدر نفسه، ص١٣٤ .

(٥٣) المصدر نفسه ، ص ٥ .

(٥٤) في عشرينيات وثلاثينيات القرن التاسع عشر تدفق الى سورية سيل من البضائع الانكليزية والفرنسية المنتجة في المعامل ، وظهرت في انكلترا خطط لاستخدام أراضي سورية من اجل اقامة طريق مائي او خط حديدي الى الخليج العربي . كما كانت الدولتان تملكان في البلاد شبكة متشعبة من القناصل والمندوبين والوكلاء القنصليين الذين يتمتعون بتجربة كبيرة في الخدمة . المصدر نفسه ، ص٥-٦ .

(٥٥) تعبير استعملته الكتب الغربية في تاريخها للمدة الاخيرة من حكم الدولة العثمانية. وتشمل المسألة الشرقية جميع المشكلات التي ارتبطت بانهيار الدولة العثمانية داخليا وثورات الشعوب المحكومة منها، وأخيراً المصالح المتشابكة والمتضاربة في الدول الاوروبية في الامبراطورية العثمانية وتدخل هذه الدول في عملية الانهيار العثماني. وكانت المسألة الشرقية بالنسبة الى روسيا هي للاستيلاء على القسطنطينية واعادة تنصيرها والافادة من موقعها الاستراتيجي والقضاء على الدولة العثمانية.

Devek Hopwood, The Russian Presence and politics in the near east, Middle East Institute, Oxford, 1969, P.2 ;

زين نور الدين زين، الصراع الدولي في الشرق الاوسط وولادة دولتي سوريا ولبنان، بيروت، ١٩٧١، ص٢٢ ؛ محمد محمد الدهان، قوى الشر المتحالفة (الاستشراق – التبشير – الاستعمار)، ط١، دار الوفاء للطباعة، المنصورة، ١٩٨٦، ص٨٤ ؛ هاشم صالح التكريتي، المصدر السابق، ص١٣٩ - ١٧٥

(٥٦) هو ثالث اولاد باول الأول (Paul I) تولى الحكم بعد موت أخيه الكسندر الأول عام ١٨٢٥ بسبب تنازل اخيه الاكبر قسطنطين عن حقه في الملك ، وكان اشد الملوك الروس مناوئة للدولة العثمانية فحاربها وأمضي معها وفاق ثم معاهدة ادرنة عام ١٨٢٩، وحارب العجم واخذ منها عدة ولايات ، وكان من اكبر مساعدي اليونان على الاستقلال ، توفي اثناء حرب القرم عام ١٨٥٥. محمد فريد بك المحامي ، المصدر السابق، ص١٠؛ شوقي الجمل وعبد الله عبد الرزاق ، تاريخ اوربا من النهضة حتى الحرب الباردة ، المكتب المصري ، القاهرة، ٢٠٠٠، ص٢١٦؛ اكرم عبد علي، تاريخ اوربا الحديث، ط١، دار الفكر، عمان، ٢٠١٠، ص١٧١.

(٥٧) وقعت معاهدة هنكار اسكله سي بين روسيا والدولة العثمانية قرب استنبول، وتعهد فيها الطرفان ولمدة ثماني سنوات بمساعدة احداهما الأخرى ، اذا ماتعرضت بلادهما لهجوم خارجي . وبموجب هذه المعاهدة حصلت روسيا على ان يكون لها كلمة مسموعة لدى الباب العالي واصبح لروسيا صلاحية التحكم بالمضائق . ليلى الصباغ ، تاريخ العرب الحديث والمعاصر ، دمشق ، ١٩٨٢ ، ص ٢٦٦-٢٦٧؛ نينل الكسندروفنا دولينا، الإمبراطورية العثمانية وعلاقاتها الدولية في ثلاثينات وأربعينيات القرن التاسع عشر، ترجمة: انور محمد ابراهيم ، المجلس الاعلى للثقافة ، القاهرة ، ١٩٩٩، ص ٦٢-٦٣.

(٥٨) سميت بحرب القرم نسبة الى شبه جزيرة القرم الواقعة شمال البحر الاسود والتي وقعت بها اهم المعارك بين الجيش الروسي من جهة والجيوش الفرنسة والبريطانية والبيدمونتية المتحالفة مع

الدولة العثمانية التي نعتها القيصر نيقولا الاول بالرجل المريض، وتمثلت الاحداث البارزة في الحرب باحتلال روسيا للافلاق والبغدان (رومانيا حاليا) عام ١٨٥٣. فاعلنت الدولة العثمانية على روسيا، وتدخلت كل من فرنسا وانكلترا والنمسا وبروسيا لصالح الدولة العثمانية، انتهت الحرب بهزيمة روسيا امام الحلفاء. وتم توقيع معاهدة باريس في ٣٠ آذار ١٨٥٦.

Adolphus Slade, Turkey and The Crimean War , Smith Elder and Co. , London, 1867, P.112;

جمال محمود حجر، القوى الكبرى والشرق الاوسط في القرنين التاسع عشر والعشرين ، دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية، ١٩٨٩، ص٧١-٨٨.

(٥٩) الكزاندر شولش ، تحولات جذرية في فلسطين ١٨٥٦-١٨٨٢ دراسات حول التطور الاقتصادي والاجتماعي والسياسي ، ترجمة : كامل جميل العسلي، ط٢، منشورات الجامعة الاردنية، عمان، ١٩٩٣ ، ص ٧٢.

(٦٠) وهو الذي يعرف عند اهل القدس بأسم (المسكوبّية) ، بُني في منطقة الميدان التي كانت تستخدم لتدريب الحامية العثمانية غربي مدينة القدس عام ١٨٦٦ ، وقد قال عنه المؤلف(Wolff) بأنه ((يبدو للغرباء من بعيد كأنه محطة مركزية للقطارات)). المصدر نفسه، ص١٤٨ .

(٦١) جمع اسكلة ، وهي كلمة ايطالية يونانية الاصل تبناها الاتراك، كانت تطلق على موانيء البحر الابيض المتوسط في العصور الوسطى، ثم عممت على الموانيء فالمدن التي اقامت فيها الجاليات الاجنبية في الشرق، وعملت فيها بالتجارة وكانت هذه الاسكالات محطاً لتجارتهم ونشاطهم، عيسى اسكندر المعلوف، تاريخ الامير فخر الدين المعني الثاني، دار الحمراء للطباعة، بيروت، ١٩٣٨، ص١٨٨؛ فيليب حتي، لبنان في التاريخ، ترجمة: انيس فريحة، بيروت، ١٩٥٩، ص٣٩٥ .

(٦٢) الكزاندر شولش ، المصدر السابق ، ص ص٩٦-٢٠٠.

(٦٣) المصدر نفسه ، ص ٩٧.

(٦٤) المصدر نفسه ، ص١١٢.

(٦٥) وهو حجر جيري قطراني لامع لونه اسود ، وله رائحة فريدة وكان هذا الحجر يجلب من المنطقة المحيطة بمقام النبي موسى (عليه السلام) لذلك سمي بـ (حجر موسى)، وتصنع منه الاقداح والاواني وغيرها ، وكان بيع هذه الاواني يروّج بالزعم بأن السوائل التي تشرب منها تُسبغ على الجسم العافية والشفاء. محمد يونس الحسيني، التطور الاجتماعي والاقتصادي في فلسطين العربية، يافا، ١٩٤٦، ص٩٣.

(٦٦) الكزاندر شولش، المصدر السابق، ص١٧٥ .

(٦٧) سميليا نسكايا، العلاقات التجارية بين روسيا وبلاد الشام ١٩٠٠-١٩١٤، مجلة المؤرخ العربي ، العدد الرابع عشر، الأمانة العامة لاتحاد المؤرخين العرب ، بغداد، ١٩٨٠، ص٣٦٤ .

(٦٨) المصدر نفسه، ص٣٧٣ .

(٦٩) المصدر نفسه، ص٣٧٩ .

(٧٠) نوري السامرائي، المصدر السابق، ص ١٥٣ .

(٧١) سميليا نسكايا، المصدر السابق، ص ٣٧٥-٣٨٢.

Russian Commerecial Activity in Levant Until the Turn of the Twentieth Century

Assist. Prof. Dr. Baida A. Shamkhi

Abstract

This study emphasized that Russia concentration from the relationships dated back to the middle ages and were expanded in modern ages .

This study explains the roots of Russian commercial activities and the beginning of its appearance in Levant . The study also gives a brief discussion of the Ottoman –Russian relations and Russian economic interests in Levant. The study outlines the most important events ,(Kuchuk Kainarji) Treaty .This event made a turning point in the countries relations and in the Russian influence .Due to this treaty Russia acquired commercial privileges in Ottoman state regions including Levant .

This study discussion was not of a general nature .It is of a special concern about Russian commercial activities in Levant .Thus we tracks the importance of Russian trade in Levant markets and its development as it is considered as a part of the development of Russian – Ottoman relations .

Through what is mentioned above ,it is clear that Russia had main and active Commercial center in Levant markets as well as Russia succeeded in establishing its existence and acquired its position in Levant markets such as the other European countries in commercial field .